المحاضرة : الثالثة عشر :

العراق في عهد مدحت باشا ١٨٦٩ _ ١٨٧٢
Medhat Pasha's mandate for Baghdad 1869_ 1872

شهد العراق حركة اصلاحية وعمرانية واضحة في عهد الوالي مدحت باشا الذي تولى حكم العراق (١٨٦٩_ ١٨٧٢) لذلك يعد مدحت باشا (١٨٢٢_ ١٨٨٣) من رواد الحركة الإصلاحية والدستورية في الإمبراطورية العثمانية وإليه يعزى صدور الدستور العثماني سنة ١٨٧٦ ، وقبل تعيينه والياً على بغداد في ٣٠/ نيسان / ١٨٦٩ كان والياً على ولاية الدانوب للمدة (١٨٦٠ _ ١٨٦٨) وأظهر قدرات إدارية ممتازة في المناصب التي تقلدها ، وجاء في الفرمان المتعلق بتعيينه بان بغداد هي أهم ولايات الإمبراطورية العثمانية وإن تربتها وموقعها يجعلانها تستحق كل انواع التقدم وعليه فأن أعز رغبة للسلطان ان يري الولاية بالتقدم والتطور وقد اعترف الفرمان أنه بدون وجود حاكم فإن التقدم المنشود لا يمكن تحقيقه، وأن مدحت باشا هو الشخص الذي سيحقق أهداف السلطان، لذلك منح مدحت باشا السلطتين المدنية والعسكرية في ولاية بغداد، كما زود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في ولايتي الموصل والبصرة ، وقد تجلت اجراءاته في ادخال الاصلاحات الإدارية والإقتصادية ولاسيما تطبيق قانوني الاراضي والولايات كانت الغاية الرئيسية هو العمل على ربط الولايات العراقية الثلاث بعضها مع البعض الآخر وتقوية السلطة المركزية عليها ، وبذل مدحت باشا جهوداً كبرى في تحديث العراق وإصلاح أوضاعه مما شكل القاعدة التي تمت عليها منجزات وتغيرات أخرى كان لها نتائج بعيدة المدى في تطوير حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وكان من أهم إصلاحات مدحت باشا هي :-

اولاً _ نظام الطابو وتوطين العشائر:

كانت باكورة أعماله إصدار نظام الطابو ميري (التسجيل العقاري) وغرضه تسجيل العقارات وإصدار الوثائق الخاصة بها من جهة وإيجاد حل لمشكلة العشائر وإنهاء حركات تمردها بتوطينها على الأرض من جهة الثانية وذلك بتوزيع الأراضي الأميرية قطعاً مختلفة وتوفير مياة للري لها وسندات الطابو لقاء دفع مبالغ بسيطة (المعجل) وتقسيط المتبقي ، وبذلك يمكن تحويل الولاء للعشيرة إلى الأرض ، وفي الوقت نفسه عمد إلى معالجة مشكلة ملكية الأرض لربطهم بها وتشجيعهم على الاستقرار والتحول إلى الزراعة، وبذلك حولت شيوخ العشائر إلى ملاكي كبار للاراضي الزراعية ترتبط مصالحهم بالحكومة ومن أبرز الأمثلة على ذلك شيوخ (المحيسن و عنزة و الديلم و شمر جربة وعشائرالجاف الكردية) ، كما شكلت لجنة لتسوية الأرض اقتصر عملها على منطقة الفرات الأوسط والبصرة وعلى الرغم مما اعتور المشروع من أخطاء نتيجة لقلة الإداريين النزيهين وانعدام الخرائط والفنيين ، فإنه كان أول خطوة جدية نحو إرساء القواعد تنظيم الملكية العقارية وتسجيلها في العراق .

ثانياً _ التنظيم الإداري للبلاد : استند مدحت إلى قانون الولايات العثماني الصادر عام ١٨٦٤ لتنظيم إدارة البلاد فعرف العراق لأول مرة في العصر الحديث تنظيماً محكماً ارتبطت بواسطته انحاء العراق كافة بمراكز إدارية رئيسية تدعى النواحي ، التي ترتبط بدورها بمراكز أعلى هي الاقضية ، التي ترتبط بالسناجق (الالوية) التي تشكل تنظيمات أوسع هي الولايات ، فأرسى بذلك دعائم الإدارة الحديثة الأولى في العراق، فإن الإجراءات الإدارية الجديدة كانت كفيلة بخلق إدارة مركزية منظمة يكون مركزها بغداد وتتولى الاشراف على شؤون القطر بأجمعه ، كما تقرر تشكيل مجالس محلية شبة منتخبة في كل وحدة إدارية و مجالس بلدية في كل مدينة فكان ذلك اول انشاء لنظام البلديات في تاريخ العراق الحديث ، وقد بقيت

هذه المجالس تمارس اعمالها وخاصة مجلس ولاية بغداد حتى الاحتلال البريطاني وفيما بعد اصبح هذا المجلس نواة لما عرف بمجلس الوزراء العراقي .

ثالثاً _ الإصلاح والتنظيم العسكري للبلاد:

وجه مدحت باشا اهتمامه لإصلاح النظام العسكري ولاسيما أن بغداد كانت مقراً للفيلق الجيش العثماني السادس(التنجي اورد وهمايوني) واستهدف ادخال العراقيين بدلاً من العناصر الأجنبية لضمان ولاءالسكان للجيش المرابط على أراضيهم، وتعويضاً للنقص في عدد الجنود الأجانب الذين لا يمكثون إلا مدة قصيرة بعدها يسرعون بالعودة الى بلادهم ، ولهذا الغاية طبق مدحت باشا نظام التجنيد الإلزامي، وحالفه النجاح في عدد من المدن العراقية ولكنه واجه الإخفاق في منطقة الفرات الأوسط بسب رفض العشائر له ،مما أدى إلى نشوب تمرد واسع عرف ب(واقعة الدغارة)التي استمرت قرابة شهرين وكانت حصيلة الاشتباكات المسلحة بين الجيش الحكومي ورجال العشائر الألف الضحايا قبل أن يقضي الجيش على حركة القبائل. كما تمكن مدحت باشا من سحق تمرد آخر قامت به عشيرة شمر الجربة واعدم شيخها عبد الكريم في الموصل ،وببعد نظر منه تم إقرار فرمان، أخي الشيخ المعدوم شيخاً للمشايخ، وقد تحالف هذا مع الحكومة وأصبح يتقاضى راتباً منها، وهكذا تأسس نظام التجنيد وفي خلال ثلاث سنوات تضاعف عدد أفراد الجيش وصار مؤلفاً من:(١٦ كتيبة مشاة و كتيبتين من الخيالة وكتيبة من المدفعية) يبلغ عدد افرادها نحو ١٢،٠٠٠ فرد، كما اسس مدحت باشا مدرستين عسكريتين الأولى مدرسة رشدية في بغداد وأخرى في كركوك ، وكانت طليعة المعاهد الحديثة في البلاد واتبع ذلك تأسيس إعدادية عسكرية تؤهل المتخرج منها للدراسة في الكلية العسكرية فى اسطنبول ، كما اولت الحكومه خدمات الجيش الأخرى عناية خاصة فتم إنشاء معمل للنسيج لانتاج البزات الرسمية للجند والخيام و وعدة معامل للطحين و لصناعة البارود ، كما ألغى تنظيمات(باشي

بـوزوق) واحـل محلهـا الضـبطية لحمايـة الأمـن الـداخلي و مـع مـرور الوقـت حلـت الشـرطة والجندرمـة محـل الضـبطية فاصـبح جهـاز الشـرطة مسـؤولا عـن الأمـن الـداخلي وعهـد الـى الجندرمـة (الـدرك) حفـظ الامـن غـي فـي خـارج المـدن والأريـاف، كمـا وضـع خطـة عسـكرية للـدفاع عـن العـراق ضـد تعـديات والأخطـار الإيرانيـة، ومـن الاصـلاحات مـدحت باشـا فـي المجـال العسـكري إنشـاء دار الصـناعة البحريـة(الترسانة) .

رابعاً _ المواصلات :

اعـاد مـدحت باشـا تشـكيل الشـركة الحكوميـة المسـماة (الإدارة العثمانيـة النهريـة) واصـلح بواخرهـا القديمـة وتـم شـراء بـواخر الجديـدة ذات حمـولات كبيـرة، إذ أصـبحت عـددها ثمـان بـواخر التابعـة لـلإدارة العثمانيـة، كمـا تـم انشـاء خـط (ترامـواي) بغـداد _الكاظميـة مـن شـركة حكوميـة اهليـة عـام ١٨٧١، فكـان ذلـك عـاملاً مهمـا فـي نمـو التجارة الداخلية والخارجية للعراق.

خامساً _ النظام القضائي

تـم الأخـذ بمبـدأ الفصـل بـين السـلطات التنفيذيـة والقضـائية وانشـيء ديـوان التمييـز للنظر في الدعاوي القانونية المستأنفة.

سادساً _ التعليم والحركة الثقافية والعمرانية .

فـي عهـد الـوالي مـدحت باشـا ادخـل التعلـيم الرسـمي الحـديث إلـى العـراق وأنشـأت المـدارس الحديثـة : المدرسـة الرشـدية الملكيـة (المدنيـة) و مدرسـة الصـناعة بتخصصـات متنوعـة ومـع ازيـاد عـدد المـدارس فـي السـنوات اللاحقـةحتى بلغـت زهـاء مائـه مدرسـة الإبتدائيـة والمتوسـطة ارتفعـت نسـبة المتعلمـين مـن السـكان حتـى أصـبحت نسـبتهم عـام ١٩٠٠ تتـراوح بـين الخمسـة والعشـرة بالمائـة، وقبيـل الحـرب العالميـة الأولـى (١٩١٤_ ١٩١٨) بلـغ عـدد المـدارس فـي أنحـاء العـراق ١٦٠

مدرسة ابتدائية منها ١٣ مدرسة للبنات و ١٢ مدرسة إعدادية وكما إنشاء غرفة تجارة بغداد في ٥/ نيسان ١٨٨٤ وفتح المصارف و نظام الجندية وإنشاء خطوط التلغراف بين الموصل وسنجارو العمادية وهنا نجد استمرار حركة الإصلاحات العثمانية بعد ولاية مدحت باشا للعراق

ومن بين أهم الامور التي اهتم بها مدحت باشا الطباعة و الصحافة فقد أسس مطبعة حكومية باسم (مطبعة الولاية) واصدر أول جريدة في العراق حملت اسم (الزوراء) في ١٥/ حزيران ١٨٦٩ تصدر مرتين في الاسبوع باللغتين العربية والتركية استطاعت خلالها أن تقدم خدمة جليلة للثقافة والمجتمع فكانت بحق مرآة للادب الثقافي والأدبي للبلاد.

سابعاً _ الحركة العمرانية

في عهد مدحت باشا تم بناء مدينتي الناصرية ١٨٧٠ و الرمادي ١٨٧٢ ومن اعماله بناء المستشفيات منها المستشفى العسكري فضلا عن ذلك شيد مدحت باشا دور حديثة للحكومة ومزرعة نموذجية وارسل المهندسين لتنظيم الري واظهر اهتماماً باصلاح نظم الضرائب الزراعية كما اسس مصفاة للنفط في بعقوبة ١٨٧١ومعملا لإصلاح السفن في البصرة ١٨٧٢

هذه من الناحية الداخلية للاصلاحات مدحت باشا بالاضافة إلى التوسعات الخارجية اذ بدأ ولايتة على العراق بالتوسع مجدداً في الخليج العربي وذلك للاسباب الاتية:-

١_ الصراع على السلطة في نجد بين امراء ال سعود ابناء فيصل بن تركي وهما عبدالله وسعود ، واستنجد عبدالله بوالي بغداد لاعادتة الى العرش

٢_ عمل مدحت باشا منذ تولاية لبغداد على تبني فكرة التوسع في الأقطار الآسيوية لكي تعوض الدولة العثمانية ما خسرتة في البلقان ، لذا أخذ مدحت باشا

علـى عاتقـة مـد السـيطرة العثمانيـة علـى الخلـيج العربـي لكـل يحـل النفـوذ العثمـاني المباشر محل السعوديين في حكم الاحساء ونجد.

٣_ تعد الدولة العثمانية نجد وملحقاتها كالحجازواليمن وعسير جزء منها

٤_ افتتـاح قنـاة السـويس ١٨٦٩ وربـط البحـر الأبـيض المتوسـط بـالبحر الأحمـر لـذا أخـذت الدولـة العثمانيـة تعمـل علـى مـد نفوذهـا علـى كـل مـن الـيمن وعسـير المطلـة على البحر الأحمر لتربط نفسها بالتجارة العالمية.

لـذا قـام مـدحت باشـا عـام ١٨٧٠ بـاحتلال الاحسـاء و احتـل أيضـا قطـر عـام ١٨٧١ وعـين قاسـم بـن ثـاني قائمقـام عليهـا ، كمـا اتفـق مـدحت الباشـا مـع عبـدالله شـيخ الكويـت علـى جعـل الكويـت قائمقاميـة عثمانيـة تابعـة لولايـة البصـرة وقـد وافـق شيوخ الكويت على ذلك للأسباب الآتية:-

١_ أن شـيوخ الكويـت كـانوا لا يرغبـون فـي الانفصـال عـن الرابطـة الإسـلامية التـي جسدتها الدولة العثمانية.

٢_ أن شـيوخ الكويـت كـانوا يملكـون الأراضـي فـي البصـرة وكـان العثمـانيون يهـددون بقطع ايرادتها عندما تتعارض سياسة شيوخ الكويت مع سياستهم

٣_ أن الكويـت تخشـى معارضـة الدولـة العثمانيـة لأنهـا لـم تكـن آنـذاك مرتبطـة مـع أي من الدول الكبرى بمعاهدة أخرى.

وبـالرغم مـن ذلـك ظلـت الكويـت تابعـة للعثمـانيين الـى عـام ١٨٩٩ عنـدما وقـع الشيخ مبارك معاهدة حماية مع بريطانيا.

اسـتقال مـدحت باشـا مـن منصـبه احتجاجـاً علـى قـرار أصـدره الصـدر الاعظـم محمـود نـديم باشـا بخصـم مبلـغ كبيـر مـن مصـروفات ولايـة بغـداد وتحويلـه الـى العاصـمة وقبلـت اسـتقالته وغـادر بغـداد فـي ٢٧/ مـايس ١٨٧٢ اسـتمرت ثـلاث سـنوات للعـراق الا انها كانت من أهم مراحل العهد العثماني.